هوامش

في منطقة زغوان التي تبعد 65 كيلومتراً عن تونس العاصمة، تقع قرية الزريبة العليا، كما يسميها الأمازيغ بلغتهم الأم، وتحيط بها غابات زيتون وأراضٍ زراعية غنية بالمياه

الزريبة العليا قبلة آلاف السياح في تونس سنوياً (العربي الجديد)

الزريبة العليا

آثار من التاريخ الأمازيغي في تونس

تونس ـ **مريم الناصري**

توجد قرية الزريبة العليا في منطقة زغوان التونسية فوق تلة عالية تحيط بها جبال صخرية. وقد حافظت على تماسكها رغم أن غالبية مساكنها انهارت. ورغم أن السكان الأصليين هجروها، لم تنقطع الحركة فيها على مدى عقود؛ فهي قبلة لآلاف السياح المحليين أو الأجانب سنوياً». يمكن الصعود إلى هذه القرية مشياً على الأقدام عبر طريق صعبة تتضمن درجاً مرتفعاً نوعاً ما، وأيضاً أزقة ضيّقة أرضيتها من حجارة جبلية. تهاوت غالبية بيوت ومباني قرية الزريبة العليا، وبقيت فقط مساكن مهجورة تشهد على تاريخ الأمازيغ الذين كانوا موجودين في عدة مناطق تونسية، لكن اللافت أن السنين أو الظروف المناخية لم تزل تفاصيل تصميم البيوت والمباني التي حوفِظ على هياكلها المنهكة رغم انهيار أجزاء كبيرة منها.

وقد شهدت بعض هذه البيوت والمباني تدخلات بسيطة لم تحمها من الانهيار رغم النداءات المستمرة من أهالي منطقة زغوان بضرورة الحفاظ على القرية باعتبارها لا تزال تمثل قبلة السياح المحليين والأجانب على حدّ سواء، رغم أنها مهجورة وتوجد فيها أربع عائلات حالياً. ويكتنف تاريخ المنطقة الكثير من الغموض، وتتعدد روايات المؤرخين والسكان المجاورين للقرية، ومنها أن الأمازيغ انتشروا على مساحات شاسعة في تونس، من الشمال إلى الجنوب، وشيّدوا قرى في عدة مناطق متطابقة تماماً على صعيد الشكل وطريقة البناء، والتفاصيل المعمارية. ويصعب وضع تاريخ دقيق لتشييد القرى الأمازيغية التي شكلّت جزءا لا يتجزأ من الإرث القديم في تونس، رغم أنها كانت محط اهتمام باحثين ومؤرخين لم يتفقوا على تاريخ المنطقة. ورجح بعضهم أنها تعود إلى الغزو الروماني، وآخرون إلى أنها شُيّدت في القرن الحادي عشر خلال الزحف الهلالي على البلاد. ويقول بعض المؤرخين إنّ تاريخ تشييد الزريبة العليا يعود إلى القرن السابع عشر حين شيّد ثلاثة إخوة أمازيغ ثلاث قرى بنفس الطريقة، وهي تكرونة والزريبة العليا وجرادو التي بني كل منها على سفح جبل منطقة مختلفة، لكن باحثين يقولون إنّ هذه القرى شُيّدت بعد قدوم قبائل من المغرب الأقصى. وتتمثل أبرز سمات قرية الزريبة العليا أنّها شُيّدت على مرتفع تحيط به بعض جبال تحميها من الرياح والعوامل المناخية الصعبة، وأيضاً من أي غزو أو تدخل، خصوصاً أنّ الطريق المؤدية إليها صعبة. ويقول محمد خلف الله، الباحث في تاريخ الأمازيغ بتونس، لـ«العربي الجديد»: «غالبية القرى الأمازيغية في تونس شُيّدت في مرتفعات صعبة وفي مناطق يصعب الوصول إليها. واختار من بنوها هذه الطريقة لتفادي أيّ حرب أو غزو أو صراع عرقي أو تهديد لهيكلهم القبلي لأنّهم يعيشون في قبائل صغيرة تمركزت في عدة مناطق تونسية، من الشمال إلى الجنوب، وبقيت معالمهم شاهدة على طريق بناء منازلهم وعيشهم في قرى صغيرة». وتعني كلمة الزريبة الحوش أو المنطقة المسورة أو الحصن المكشوف، بحسب تعريف المعهد الوطني للتراث. والحوش هو الفسحة الخارجية التي تقع وسط البيوت التي كانت تشيّد بطرق قديمة، وتتضمن غرفاً تُبنى في شكل دائري تتوسطها فسحة تسمى بالحوش في تونس. وكل بيت في قرية الزريبة العليا هو متحف في حدّ ذاته، وقد ترك بعض السكان الذين رحلوا عن هذه البيوت مقتنياتهم البسيطة التي تعدّ اليوم من أغلى أنواع «الأنتيكا» التي لا مثيل لها في عدة مناطق تونسية. وتعيد التفاصيل البسيطة لكل بيت إلى قرون شهدت عيش الإنسان بطرق بسيطة جداً.

وتتوزع هذه المساكن البسيطة على مساحة صغيرة تفصل بينها أزقة صغيرة جعلت سكان القرى الأمازيغية في تونس يعيشون في عالمهم، ويمارسون تقاليدهم وأعرافهم الخاصة، تجمعهم بئر واحدة ومسجد واحد، ومقهى يتوافد إليه الزوار اليوم، خصوصاً خلال العطل الأسبوعية.

وجرى تشييد مباني الزريبة العليا بصخور جبلية مثل كل القرى الأمازيغية في تونس، ما جعلها جميعها تتشابه في الشكل وطريقة العمار، وتتفرّد بأنها قريبة وتفصل بينها أزقة ضيقة جداً. أما غرف البيت فبُنيت في شكل دائري تتوسطها فسحة تسمى الحوش أو صحن الدار، وأسقفها مقوّسة على شكل قبة، وليست مسطّحة. ورغم أن غالبية هذه البيوت تهاوت وانهارت، لا تزال قرية الزريبة العليا تستقطب السياح باستمرار، وتمثل قبلة لهواة السينما والدراما وشركات الإنتاج. وبعيداً عن الاختلافات العرقية في المجتمع التونسي، لا يزال تاريخ الأمازيغ يظهر بوضوح في عدة مناطق، خصوصاً في الزريبة العليا حيث توجد نقوش ورسوم بأحرف أمازيغية على جدران بيوت انهارت غالبيتها، رغم أنها شُيّدت باستخدام حجارة جبلية صمدت آلاف السنوات. وعام 2016 أشرف مسؤولون على جلسة عمل للنظر في سبل صيانة قرية الزريبة العليا وإحيائها. وجرى تقديم عرض حول الأهمية التاريخية للقرية، لكنها لم تشهد أي ترميم منذ سنوات حتى تهاوت جدران غالبية المساكن في السنوات الأخيرة. لكن ذلك لا يمنع أيضاً بعض من بقي في القرية بأن يحلموا في العودة إلى العيش فيها أو تحويلها إلى قرية ثقافية تعرّف بالهوية الأمازيغية في تونس.

باختصار

توجد قرية الزريبة العليا على مرتفع تحيط به جبال تحميها من الرياح والعوامل المناخية الصعبة، ومن أي غزو أو تدخل

■■■

تعني الزريبة الحوش أو المنطقة المسوّرة أو الحصن المكشوف، بحسب تعريف المعهد الوطني للتراث

■■■

شُيّدت مباني الزريبة العليا بصخور مثل كل القرى الأمازيغية في تونس، ما جعلها تتشابه في الشكل وطريقة العمار

وأخيراً

سؤال الكتابة... سؤال الحياة

سعدية مفرح

لماذا نكتب؟ لطالما سألتُ نفسي هذا السؤال منذ أدركتُ أن الكتابة قدري الجميل، وهوايتي الأثيرة، وأيضاً عملي وشغفي واستراحتي أيضاً... إجابات كثيرة توصلت إليها على هذا الصعيد، متغيرة وفق الظروف المتغيرة والاحتياجات المتغيّرة والشغف المتغير أيضا. المهم أن أبقى على قيد الكتابة دائماً، بحثاً عن إجاباتٍ لأسئلة مستحيلة تنبثق من عالم الكلمات. ولا أهتم كثيراً إن كانت تلك الإجابات مقنعة أم لا، فالمهم دائماً أن أمضي بها لأستمر، ولتكون وقودي لكتاباتٍ جديدة. أقدّم دورات في الكتابة وفي الصحافة أيضاً، وفي كل دورةٍ أجدني متغيّرة أمام المتدرّبين، وإجاباتي أيضاً متغيّرة في شكلها أمام أسئلتهم. ولذلك أفرح بتلك الأسئلة، وأحتفي بكل جديد ومثير منها... أشجّعهم على إنتاج مزيدٍ من الأسئلة الصعبة بشأن ما يتعلق بعالم الكتابة. هل أعتبر الكتابة سرّاً؟ لعلها كذلك، ونحن الكتّاب الباحثين عن الأسرار الخفية وراء الكلمات، لا نصل. المهم دائماً أن تستمر رحلة البحث، بالنسبة للكاتب وللقارئ أيضاً. ولذلك، أرى أن المتلقي أو القارئ المحترف لا يهمّه الوصول إلى الإجابات وهو يقرأ نصّاً ما بقدر ما تهمّه المتعة في أثناء الرحلة ووجود ما يجعله يستمرّ في المشي بين السطور. والحكاية كلها بدأت ككل الحكايات الصغيرة في بدايات العمر، ككل الأحلام وكل الجنون الذي نفكر فيه باعتباره العقل الكامل، ثم نصل إلى مرحلة الانغماس الكلي فيه. الكتابة بالنسبة إليّ ليست مجرد تدوين أفكاري وأحلامي وطموحاتي، وليست تفريغاً عاطفياً كما يظن كثيرون، بل هي أنا. حتى أنني عندما أريد أن أتذكّر متى بدأت الكتابة تضيع الذكريات، ولا أعرف. لا أتذكّرني بلا فكرة تصلح للكتابة، ولا أتخيّلني بعيدة عن الأقلام والأوراق، ثم لاحقاً عن لوحة المفاتيح. أحياناً أكتب كلماتٍ مبهمة وجملاً غير مفهومة، وأعتبر ذلك نوعاً من الممارسة اليومية والتدريب المستمرّ حتى أقنن الأمر وأبرّر لنفسي ضياع وقتي في كتاباتٍ لا يقرأها أحد، ولكن الحقيقة وراء كل تلك الكتابات العشوائية غير ذلك. إنها نوعٌ من التنفس الذي لا أستطيع الحياة من دونه. كانت الكتابة ملاذي الجميل وعزلتي المحبّبة، ولم أكن أعلم أنني سأصل بها، وستصل بي، إلى جغرافيات بعيدة جدّاً لم أكن أعرفها. وعندما بدأتُ مرحلة نشر ما أكتب في الصحف المحلية في الكويت، سرعان ما وجدتُ نصوصي تحلّق بعيداً عني، وتسافر إلى تلك الجغرافيات البعيدة بلغتي العربية وبلغات أخرى، حتى قبل أن أتمكّن من السفر. ليس لديّ طموح ثقافي محدّد، لكي أعرف أن تجربتي في الكتابة والنشر والترجمة قد لبّت طموحي أم لا، لكنني، وبعد عقود في الكتابة والشعر والتأليف والصحافة والنشر، وبعد عدة كتبٍ صدرت لي، أشعر أنني لم أغادر بعد خطوتي الأولى، وأن كلمتي التي أودّ كتابتها فعلاً ما زالت معلقة بانتظار الفتحة والضمّة والكسرة والسكون، وأنني ما زلت أتهيّب الرحلة، على الرغم من الشوق الكبير الذي يعتريني كلما جلست على طاولة الكتابة. أما الحضور فلا يهم كثيراً لدى الآخر ما دام قد تحقّق لدي. نعم.. أنا حاضرة أمام ذاتي، شاعرة وكاتبة وباحثة أبدية عن حقيقة الكلمة، وأنا أيضاً في خضم الشك بهذا كله أعيش وأستمرّ. ولا أريد الوصول النهائي إلى يقين الكتابة.. حتى لا تنتهي الرحلة الممتعة. نهايتها بالموت وهذا الموت الجسدي هو اليقين الكبير في حياتنا جميعاً.

> لا أتذكّرني بلا فكرة تصلح للكتابة، ولا أتخيّلني بعيدة عن الأقلام والأوراق، ثم لاحقاً عن لوحة المفاتيح

سعر النسخة: مصر **جنيهان**، تونس **900 مليم**، لبنان **1000 ليرة**، قطر **3 ريالات**، السعودية **3 ريالات**، الكويت **200 فلس**، الإمارات **3 دراهم**، عمان **300 بيزة**، البحرين **300 فلس**، الأردن **400 فلس**، العراق **500 دينار**، المغرب **4 دراهم**، الجزائر **ديناران**، اليمن **50 ريالاً**، سورية **25 ليرة**، السودان **10 جنيهات**، ليبيا **200 درهم**، موريتانيا **35 أوقية** ◻ UK **£ 1,50**, Austria **€ 2,50**, Belgium **€ 2,50**, France **€ 2,50**, Germany **€ 2,50**, Holland **€ 2,50**, Italy **€ 2,50**, Spain **€ 2,50**, Switzerland **CHF 3,50**
Turkey **TL 10,00**, USA **$ 2,00**